﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾ [الزخرف: 45]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إذا كان القرآنُ شرفًا لكم؛ فلتُصدِّقوه، ولتعملوا بما فيه

لَمّا بيَّنَ تعالى أنَّ لقومِ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ نصيبًا مِن الذِّكرِ والشَّرَفِ المُتعلِّقِ بالَّذي أوحِيَ إليه، والذي يُنكِرونَه؛ أرادَ أنْ يُمكِّنَ ذلكَ في نفوسِهم، فختَم هذا المقطعَ مِن المعنى بما يرجعُ إلى ما تأسَّسَ عليه، مِن قولِه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۡۗ﴾ [الزخرف: 20]، ومِن آيتَي: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢ وَكَذَٰلِكَ﴾ [الزخرف: 22 - 23]، ومِن آية: ﴿۞قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾ [الزخرف: 24]، ومِن آيةِ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ٣١﴾ [الزخرف: 31]، فبيَّنَ في هذهِ الآيةِ كذِبَهُم، بالتَّوجيه إلى الرُّجوعِ إلى كتبِ آبائهم الَّتي جاء بها رسلُهُم، والَّذي جعَل القرآنَ يأملُ فيهم خيرًا، مع أنَّهم صاروا كالصُّمِّ العُمْي أنَّه ذكَرَهُم بصفة القوامة والقوميَّة، ففيهم - نفْسًا وفطرةً ولسانًا - قوَّةٌ تُمكِّنُهم مِن الرُّجوعِ إلى الحقِّ، والرُّجوعُ إلى الحقِّ خيرٌ مِن التَّمادي في الباطل، تلك الصِّفة: (قوم) هي الَّتي فتحت الباب بقوَّةٍ لمجيء هذه الآيةِ، وساعدَها على ذلك التَّرابُط اللفظيُّ بين جملة: ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ وجملة: ﴿وَسۡـَٔلۡ﴾؛ فهذا مِمّا حَسَّنَ التَّواصُلَ والتَّناسُبَ بينَ الآيتَيْن، أرجو من المعلق - دون تعصب منِّي لنفسي - أن يبيّن لي وجه النظر أوَّلًا، وأن يكشف لي عن العائق المعنوي في التواصل بين هذين الطرفين، إن المناسبة هنا جد لطيفة؛ ألا ترى ذكر رسول الله المخاطب بقوله: ﴿لَّكَ﴾ في الآية الثانية باديًا؟ والقوم في الآية الأولى هم المقصودون بقوله، ومن

قوله: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾، فأي قرينة بعد ذلك على صواب المناسبة وصحتها؟

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

البحثُ عن الحقيقةِ شأنُ المُنْصِفِينَ

يقولُ الله تعالى: واسأل يا محمَّدُ - على سبيل الفرض والتَّقدير - مَن سبقَك مِن الرُّسُلِ، هل هناك أحدٌ مِن الرُّسُل دعا إلى عبادة غير الله؟ إنَّ الدَّعوة إلى التَّوحيد أصلٌ راسخٌ في كلِّ الشَّرائعِ والكتبِ السَّماويَّةِ، فعلى أتباعِ هؤلاءِ الرُّسُلِ السّابقينَ النَّظُرُ في كتبهم وأديانِهم، مع إنصافِ أنفسهم وإنصافِ الحقِّ، فإنَّه سيظهرُ لهُم ما كان عليه آباؤُهم مِن ضلالٍ مُبِينٍ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الوَصْلِ بالواو في: ﴿وَسْـَٔلْ﴾:

إنَّما يعشو عن ذِكْرِ الرَّحمنِ مَن اتَّبَعَ أهلَ الضَّلالِ مِن الآباءِ وغيرِهِم

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾: عاطفةٌ لِما بعدَها على قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بين الكمالَيْنِ، فكلاهما إنشاءٌ في اللَّفظِ والمعنى، وظاهرُ الأمرِ بالسُّؤال يعودُ على الأمرِ بالاستمساكِ بالتَّحقيق والتَّوكيد، وإذا كانَ ما هو علَّةٌ لهذا الأمرِ بالاستمساكِ مُدْخِلًا في لُطْفٍ لأهل الكفرِ مِن قومِه ﷺ خاصَّةً، ومِن غيرِهم عامَّةً في طلبِ الاستمساك بالقرآنِ الكريم، فإنَّ لهؤلاءِ جميعًا نصيبًا مِن الخطابِ بهذه الآيةِ، فعليهم أن يَنْظُروا في كُتُبِ الرُّسُلِ السّابقينَ الَّتي لم تُحرَّفْ، ولم تُبدَّلْ، وأنْ يَسألوا علماءَ أقوامِ هؤلاءِ الرُّسُلِ، الصّادقينَ الَّذين لم يعهدوا عليهم كذبًا، وأنْ يَسْلُكوا نحوَ ذلك مِن الطُّرُقِ الَّتي تصِلُ بهم إلى الحقيقةِ، فكيف يكونُ القرآنُ ذِكْرًا وشرَفًا لهم، وهو دالٌّ على الألوهيَّةِ الحقَّةِ، ولا يكونُ منهم ذلك؟

بلاغة التَّعبيرِ بالسُّؤالِ في: ﴿وَسْـَٔلْ﴾:

الـحَـمْـلُ على المجاز أو الكناية أبلغُ الأوجه

في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾: ليس المرادُ بسؤال الرُّسُل حقيقةَ السُّؤال؛ لكون ذلك محالًا، ولكنَّه مجازٌ عن النَّظَر في أديانهم، والفَحْص عن مللهم، هل جاءت عبادةُ الأوثان قَطُّ في مِلَّةٍ من ملل الأنبياء؟ وكفاهُ نظَرًا وفَحْصًا نظَرُه في كتاب الله المُعْجِز المُصدِّق لما بينَ يديه، وإخبارُ الله فيه بأنَّهم يَعْبُدون من دون الله ما لم يُنزِّل به سلطانًا، بل يكفيه نظَرًا وفحْصًا نظَرُه في هذه الآيةِ الفاذَّةِ الكافيةِ في المقصودِ، والسُّؤالُ الواقِعُ مجازًا عن النَّظَر - إذ لا يصِحُّ السُّؤالُ على الحقيقةِ - كثيرٌ، والكلامُ مبنيٌّ على الشَّرْط، كأنَّه قيلَ: إن شكَكْتَ؛ فاسأل[1]، وهذا هنا جارٍ إمّا على طريقِ المجازِ المرسل؛ لعَلاقَة السَّببيَّةِ أو اللُّزوميَّةِ، وإمّا على طريقِ الكنايةِ؛ "لأنَّ المرادَ بهذا السُّؤال لازمُه العُرْفيُّ، وهو الجوابُ الَّذي لن يكونَ إلّا بما أرادَه المُتكلِّمُ"[2]، وعلى هذا يتحقَّقُ الغرضُ من السُّؤال، وهو تبكيتُ الكفّار من العربِ، ومِمَّن غرَّهم من أهل الكتابِ بقولِهم: (دينكم خيرٌ من دينه، وأنتم أهدى سبيلًا منه)، فإنَّهم إذا أحْضَروا كتبَهُم؛ عُلِمت دلالتُها القطعيَّةُ على اختصاصِه سبحانه بالعبادةِ، وتحريفُ كتبهم لا يضرُّ في مِثْلِه، بل عدم الاعتماد بالتَّحريفِ إنَّما هو في الفروع ونحوِها، وأمّا نحوُ عبادة الأوثان؛ فكتابُهُم موثوقٌ به[3].

بلاغةُ التَّعبير بالموصول ﴿مَنْ﴾:

خـبرُ الـرُّسُـلِ ورسـالاتِـهـم شائعٌ مُسْتفِيضٌ

كلمة: ﴿مَنْ﴾ اسمُ موصولٍ للعاقلِ المُذكَّر، وجملة: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ صلتُه الَّتي يفتقرُ إليها؛ لتوضِّحَه، وفي نظم معنى إرسالهم صلةً دلالةٌ على عِلْمِ المُخاطَبينَ بذلك؛ لشُهْرتِه بينهم وفيهم، وهذا يعني توفُّرَ

(1) الزمخشري، الكشاف، والطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب معًا: 14/ 149 - 150.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 397.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 32، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 327.

العِلْم بما جاء به هؤلاءِ الرُّسُل عندهم، وشهرتَه فيهم، فيتمكَّنونَ مِن السُّؤالِ المذكور، فتُقامُ الحُجَّةُ عليهم، ويُلزمونَ بمُقتضَى السُّؤالِ المذكورِ، وما يترتَّبُ عليه.

علَّةُ التَّعبيرِ بالإرسال مادَّةً وصِيغَةً:

إرسـالُ الـرُّسُـلِ للعالَمِينَ رحمةٌ

عبَّر القرآنُ بالإرسال دون غيرِه في قولِه تعالى: ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا﴾؛ لأنَّه يُذَكِّر بالرِّسالةِ الَّتي يكونُ النَّظرُ المقصودُ مِن السُّؤالِ فيها، ولأنَّ فيه معنى السُّهولة والرِّفْق والتُّؤَدة؛ وهذا يُناسِبُ مقام حِلْمِه ﷺ عليهم، ونظَم القرآنُ معنى الإرسال فعلًا ماضيًا؛ لأنَّ إرسالَ هؤلاء الرُّسُل قد وقع، وكان، وانتهى في أزمنة قبل زمان مبعثِ رسولِنا محمَّدٍ ﷺ، ولأنَّ شريعته قد نسخت شريعتهم، فلا استحضار لكتبهم إلّا في مِثْلِ هذا المقامِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بضمير العظمة في: ﴿أَرْسَلْنَا﴾:

حُـجَّـةُ الـلـهِ لدى الرُّسُـلِ في غـايـةِ العـظَـمـةِ والوضوحِ

أسْنَد القرآنُ فعل الإرسالِ إلى ضميرِ العظمة: (نا) في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا﴾، وكذلك أضاف القرآنُ الرُّسُلَ إلى نَفْسِ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿مِن رُّسُلِنَآ﴾؛ لبيانِ عظَمَة إرسالِهم وعظَمَةِ الرُّسُل وفخامتهم، وهذا ينظرُ إلى هضم الأقوام للرُّسُل على حدِّ ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: 31]، ولبيان دلالةِ إرسالِهم، وما جاؤوا به إلى أقوامهم على عظمة المُرْسِل وصاحبِ الرِّسالةِ، وهو الله – سبحانه وبحمده – وأنَّ الحقَّ في هذه الرِّسالات وعلى أيدي الرُّسُل عظيمٌ جدًّا، فهو في غاية الوضوح، لا يكادُ يلتبس على أحدٍ عاقلٍ مُنْصِفٍ، وهذا ينظُر إلى السُّؤال المذكور في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ﴾.

بلاغةُ كونِ المسؤولِ الرُّسُلَ:

لَمّا كان أتْباعُ الرُّسُل قد غيَّروا، وبدَّلوا ما جاءَهُم به الرُّسُلُ غالبًا، خصوصًا أهل الكتاب، فلم تكُن بهم ثقةٌ؛ جعَل القرآنُ المسؤولَ

الرُّجوعُ إلى أديان الرُّسُلِ وكُتُبِهم هو طريقُ معرفةِ الحقِّ

الرُّسُلَ في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾، أي: بقراءة أتباعهم لكتبهم، الَّتي حرَّفوا بعضَها، وجعلت كتابك مهيمنًا عليها، فإنَّهم إذا قرؤوها بين يديكَ، وعرضوها عليك؛ علمت معانيها، وفضحت تحريفهم، وبيَّنت اتِّفاق الكتب كلِّها بردِّ ما ألبس عليهم مِن مُتشابهها إلى مُحكمها[1].

بلاغةُ موقع الجملة الاستفهاميَّة:

ساق القرآنُ المسؤول عنه مساق تفخيم وتعظيم

قولُه تعالى: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾: بدلٌ مِن جملةِ: ﴿وَسْـَٔلْ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هو سؤالُ مَن قبلَه مِن الرُّسُل، ويجوزُ أن تكون جملةُ الجَعْل سدَّت مَسَدَّ مفعولَي (اسأل)، المعلَّقة عن العمل بالاستفهام، والمعنى: هل حكمنا بعبادة الأوثان، وهل جاءت في مِلَّةٍ مِن مللهم، والمرادُ به الاستشهادُ بإجماعِ الأنبياء على التَّوحيد، والتَّنْبيهُ على أنَّه ليس ببِدْعٍ ابتدعه حتَّى يُكذَّبَ، ويُعادَى[2].

بلاغةُ الاستفهام في: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ﴾:

الاستفهامُ ينظرُ بقوَّةٍ إلى الغافلينَ عن حقيقة المسؤولِ عنه

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْنَا﴾: للاستفهام، وهو إنكاريٌّ؛ لأنَّه لم يكُن، أي: لم نجعل، وفَضْلُ الإنكارِ بالاستفهام عليه بالنَّفي الصَّريح: أنَّ الاستفهامَ محض معناه التَّنْبيهُ، فهو يُحرِّكُ أهلَ الكفر خاصَّةً للتَّفكيرِ في القضيَّة محلِّ الخلافِ، ففي الاستفهام توكيدُ المعنى المطلوبِ تقريرُه، وهو حقيقة المسؤول عنه؛ لأنَّك لن تجد أحدًا مِمَّن تسألُهم يقولُ لك ما يُخالف هذا الأصلَ، وهو إنكارُ أن نكون قد جعلنا آلهة تُعبد مِن دون الله، وفيه أيضًا مع تأكيدِ المعنى إدلالٌ ويقينٌ وقطْعٌ، بأنَّك لن تجد مَن يقولُ لك غيرَ الَّذي أردناهُ، وهذا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 32.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 222، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 89، ومحي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 79.

الإنكارُ يُلاحِظُ، ويرُدُّ على ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: 22]، أي: ليس آباؤُكم بأهدى مِن الرُّسُل الأوَّلين؛ إنْ كنتُم تزعمون تكذيبَ رسولنا؛ لأنَّه أمرَكُم بإفرادِ الله بالعبادة[1].

علَّةُ المُضِيِّ في: ﴿أَجَعَلْنَا﴾:

المُضِيُّ يُقرِّرُ وحدَةَ الرِّسالاتِ في العقائدِ

الأبلغُ في الإنكارِ أيضًا نَظْمُ الجَعْلِ فِعْلًا ماضيًا، فلا أساسَ لاتِّخاذِ قوم رسولِ الله محمَّدٍ ﷺ آلهةً يُعبدون مِن دون الرَّحمن، فالمُضِيُّ مناسبٌ لحركة المعنى في الآية، مِن سؤالِ مَن أرسلَه الله مِن قبل رسول الله محمَّدٍ ﷺ مِن رُسُلِ الله، فإنكارُ الجَعْلِ في الزَّمان الماضي يلزمُ منه هنا إنكارُه في زمان أمَّة رسول الله محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّ الجَعْلَ الثّاني مَقيسٌ على الجَعْلِ الأوَّلِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بضمير العظمة في: ﴿أَجَعَلْنَا﴾:

بالتَّعبير بضمير العظمة يتَّحِدُ نسَق الكلامِ في الآيةِ

أسند القرآنُ فِعْل الجَعْل إلى ضميرِ العظمة: (نا) في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ إشارةً إلى كمال ظهورِ عظمة الألوهيَّةِ الحقَّةِ، مِمّا يستحيلُ معها وجودُ شيءٍ، يستحقُّ العبادةَ معَ اللهِ سبحانه، ففي: (نا) تعليلٌ في المعنى للإنكار التَّكذيبيِّ، وفيه تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ العابدينَ آلهةً مِن دون الله قد عموا عن تلك العظمة، وصُمَّت آذانهم عن سماع شواهدها، وفي هذا كلُّ تشهيرٍ بهم، وتفظيعٍ لحالهم العجيبة الغريبة.

علَّة التَّعبير بـ: ﴿دُونِ﴾:

كلمة (دون) فيها معنى الضَّعْفِ والحقارةِ ونحو ذلك

لَمّا ذكَر القرآنُ طرفَ المقارنةِ الحقَّ بصيغةِ التَّعظيم؛ شرَع في الكَشْفِ عن حقيقةِ الطَّرَف المُقابِل لهُ، وأوَّلُ العناصرِ الدّالَّة على ذلك كلمةُ: ﴿دُونِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، والَّتي تُقال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 222، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 396 - 397.

في الأصل للقاصِر عن الشَّيء، وقال بعضُهم: (دون) مقلوبٌ مِن الدُّنوِّ، والأدْوَنُ الدَّنيءُ[1]، قال البقاعيُّ: "وقرَّرَ حقارةَ ما سواهُ بقوله: ﴿مِن دُونِ﴾"[2].

بلاغةُ الالتفاتِ:

في الالتفاتِ إحسانٌ إلى أهلِ الكُفْرِ وأيُّ إحسانٍ

انتقَل القرآنُ مِن أسلوبِ التَّكلُّم في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْنَا﴾ إلى أسلوبِ الغَيْبةِ في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، ولو جرى الكلامُ على الظّاهر؛ لقيل: (أجعلنا مِن دوننا)، وهذا الالتفاتُ دقيقٌ رائعٌ واقِعٌ موقِعَه؛ إذ يُنبِّهُ إلى أهمّيَّة موقع الالتفاتِ، وضرورةِ المراجعةِ فيه، وتأكيدِ معنَى المُراجعةِ المفهومِ مِن وضْعِ الاستفهام الإنكاريِّ موضِعَ حرفِ الإنكارِ، وإلى أنَّ الموصوفَ بالرَّحمن هو الجديرُ بأنْ يُعبَد، وأنَّ هذه الصِّفة العظيمة الَّتي أجريتموها في مواضِع الضَّلال، لَمّا قلتُم: (لو شاء الرَّحمن؛ ما عبدناهم)، وجعلتُم الملائكة الَّذين هم عباد الرَّحمن إناثًا، وعشوتُم عن ذِكْر الرَّحمن: هيَ الجديرةُ بالعبادة، وبذلك صار هذا الالتفاتُ تقويةً لمعنى الاستفهام الإنكاريِّ، الَّذي بُنِيَتْ الآيةُ عليه، وإشارة خفيَّة جدًّا لسرِّ جريانِ كلمة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، فيما جَرَت به، وأنَّ إشارة الآية إلى أنَّه لا يجوزُ أنْ يُعبد شيءٌ مِن دونه؛ لأنَّ فيها معنى أحقيَّتِه للعبادة، وهذا إبْعاد لهذا الاسم العظيم عن مواقع الضَّلالات، الَّتي أوقعتموه فيها؛ لشدَّة مُنافاته لسياقها[3].

علَّةُ التَّعبير بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾:

في التَّعبير به تنبيهٌ على إسرافهم في الكُفْرِ

ذكَر القرآنُ الاسم الجليل الرَّحمنَ مقترِنًا بأشنع ضلالاتهم؛ بعبادة الآلهة مِن دون الله، في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾؛ لبيان مزيدِ الغلوِّ والإفراطِ في ضلالهم، وأنَّهم

(1) الراغب، المفردات، ص: 175 - 176، ومادة: (دون).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 33.
(3) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 400 - 401.

كفروا بالرَّحمن الذي يَبيتون، ويُصبحون يتقلَّبون في نعمائه، وليس أخسَّ ولا أشنع مِن كُفْر مَن بات المرءُ في نعمائه يتقلَّب[1]، ففي التَّعبير به إنكارٌ عليهم أنْ يكفروا به تعالى، فيعبدوا مِن دونه تلك الآلهة الَّتي لا تنفعهم شيئًا.

نكتةُ تقديم: ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

قُدِّم قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: على قوله: ﴿ءَالِهَةً﴾؛ للعنايةِ والاهتمام بالمُقدَّم، ووجهُ ذلكَ أنَّ مَن عرَف الله تعالى عمومًا، وعرَف كونَه رحمانًا خصوصًا، فعرَف الله برحمته الواسعة لم يكَد يُقْبِلُ على شيء يعبدُه مِن دونه، فأمّا هؤلاء القومُ العاشون عن ذِكْر الله، الصُّمُّ العُمْيُ؛ فقد تجاهلوا ذلك، فكفروا، وأسرفوا في الكفر، ففي التَّقديم إنكارٌ لطيفٌ عليهم ألّا يلتفتوا إلى ألوهيَّته تعالى ورحمانيَّته، وتشنيعٌ عليهم، وتشهيرٌ بهم، وما جرى في هذا الطَّريق مِن المعنى.

مِـثْـلُـه تـعـالى يُـقـدَّمُ عـلى كـلِّ شيءٍ

سرُّ تنْكيرِ ﴿ءَالِهَةً﴾:

نظَم القرآنُ المفعولَ الأوَّلَ للجعل ﴿ءَالِهَةً﴾ نكرةً؛ للدَّلالةِ على حقارتها وهوانها في مقابلِ عظمة الله سبحانه الإله الحقِّ، والَّتي يدلُّ عليها الضَّميرُ (نا) في قوله: ﴿أَجَعَلۡنَا﴾، والاسمُ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، وللدَّلالة على العموم، بحيثُ يصدقُ الإنكارُ الَّذي في الآيةِ على كلِّ ما يتَّخذُه بعضُ العبادِ إلهًا مِن دونِ اللهِ ﷻ.

عـظـمـةُ الـلـهِ تـعـالى تـقـضي بـحـقـارة كـلِّ معبود سواه

سِرُّ ذِكْرِ الصِّفةِ ﴿يُعۡبَدُونَ﴾:

هذه الصِّفةُ: ﴿يُعۡبَدُونَ﴾ لازمةٌ للموصوفِ: ﴿ءَالِهَةً﴾ عندَ أهلِ الكفر، لا تنفكُّ عنه، فنفيُ الموصوفِ يلزمُ منه نفيُ الصِّفة، فما فائدةُ ذِكْرِ الصِّفة ووقوعِها في حيِّزِ النَّفْي؟ والجوابُ: أنَّ عبادتهم آلهةً مِن دون الرَّحمن؛ لتشفع لهم، ولتُقرِّبهم إلى الله زُلفى وغيرَ ذلك عقائدُ متغلغلة في نفوسهم، ووجدوا عليها آباءهم، فكان مِن المفيد تكرارُ

حـالُ الـصُّـمِّ الـعُـمْـيِ يفتقِرُ إلى المبالغة في الإنكار

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 398.

نفيها وتأكيدُه بذِكْر الصِّفة؛ لأنَّ ذِكْرَها يفيد توكيدًا ومبالغةً في نفي الموصوفِ، فنفيُ الموصوفِ في هذا الأسلوبِ نفيٌ قائمٌ على الحُجَّة والبرهان، وليس مُجرَّدَ نفيٍ، فكأنَّ الموصوفَ نُفِيَ مرَّتيْن، والشّاهدُ هنا من بابِ نفيِ الشَّيء بإيجابِه عندَ علماءِ البديع، وهو الكنايةُ الإيمائيَّة الَّتي تفيدُ نفيَ الشَّيء بنفي لازمه عندَ الطِّيبيِّ[1].

دلالةُ المضارعة في ﴿يُعْبَدُونَ﴾:

هذه الصِّيغةُ هنا سخيَّةُ الدَّلالةِ

نظَم القرآنُ معنَى العبادة فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿يُعْبَدُونَ﴾؛ دلالةً على تنوُّع هذه العبادةِ وتغايُرِها واختلافِها؛ تَبَعًا لاختلافِ هذه الآلهة المعبودة بالباطل، وتغايُرِها وتنوُّعِها، قال البقاعيُّ: "ولَمّا كانَ قد جعل لكلِّ قوم وجهة يتوجَّهون في عبادتهم إليها، وشيئًا محسوسًا بغلَبة الأوهام على الأفهام يشهدونه، وكان رُبَّما تعنَّتَ به مُتعنِّتٌ، قال مُحْترِزًا: ﴿يُعْبَدُونَ﴾"[2]، وفيه دلالةٌ لطيفةٌ على إسرافهم في الكفر، بتجديدِ عبادتها، وتكرارِها واستمرارِها، وليس المرادُ البتَّة تسلُّطَ الإنكارِ والنَّفي على معنى المضارعة، بحيثُ يجوزُ عبادةُ الآلهةِ مرَّةً واحدةً.

دلالةُ حذفِ الفاعل في ﴿يُعْبَدُونَ﴾:

حـذف الـقـرآنُ الفاعلَ؛ لينطق الـكـفـار الـصُّـمُّ الـعُـمْـيُ بأنَّـهـم هـم المقصودون أصالةً

بُنِي الفعل ﴿يُعْبَدُونَ﴾ للمجهول، ولم يذكر فاعله الَّذي يَعْبدُ هذه الآلهةَ الباطلةَ؛ احتقارًا له كما احتقَر القرآنُ ما يعبدُه، وفي حذفه إشارةٌ إلى عمومِه المُشاكِلِ لعمومِ ما يعبدُه: ﴿ءَالِهَةً﴾، قال البقاعيُّ: "﴿يُعْبَدُونَ﴾، أي: مِن أيِّ عابدٍ ما، بوجهٍ ما"[3].

علَّةُ إجراءِ غير العاقل مجرى العاقل:

عامل القرآنُ غيرَ العاقلِ مِمّا يعبدُه أهل الكفر والشِّرك مِن دون

(1) عادل الأكرت، دراسات في البلاغة القرآنية - الدراسة الأولى: مِن بلاغة الصّفة في القرآن الكريم، ص: 46 - 48، وابن أبي الأصبع، تحرير التحبير، ص: 377، والطيبي، التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، ص: 273، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 223.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 33.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 33.

استحضر حالَهُم؛ ليُفكِّروا فيه

الرَّحمن معاملةَ مَن يعقلُ؛ فعُبِّر عنها بواو الفاعلين في قوله تعالى: ﴿يُعْبَدُونَ﴾؛ وذلك لمراعاة لفظ الآلهة في قوله: ﴿ءَالِهَةً﴾[1]، وجريًا على ما غلَب في لسان العربِ؛ إذ اعتقدوهم عقلاءَ عالِمينَ[2]، وفي هذا تشهيرٌ بالعابدين وبقُبحهم، وتشنيعٌ عليهم، فهذه الأصنامُ الجماداتُ الَّتي لا تنفعُ، ولا تضُرُّ في بصائرِ أهلِ الكفرِ آلهة، فحكَى القرآنُ اعتدادَهُم بها، واعتقادهم قدرتها على التَّصرُّف والنَّفع والضُّرِّ وغير ذلك من أفعال العقلاء.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 57.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 223.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"